التجربة السيميائية العربية في نقد الشعـــر
-قراءة في المنهـــج-

الدكتور: مختـــــار ملاس
قسم اللغة والأدب العربـــي
جامعة سطيـــــف

لا أحد يستطيع أن ينكر أن أكثر الاتجاهات النقدية المعاصرة سيطرة على الساحة العربية هو الاتجاه السيميائي. الّذي أصبح في الآونة الأخيرة المنهج الأكثر تأثيرا على المنظومة الفكرية المعاصرة. وقد تجلى احتفال الخطاب النقدي المعاصر بالاتجاه السيميائي عبر عدة مستويات:

1- اعتماد بعض المؤسسات والمخابر الجامعية على تخصيص ملتقى سنوي لمطارحة الفكر السيميائي في جميع جوانبه تنظيرا وتطبيقا. نذكر من ذلك مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب الّذي يترأسه الدكتور رشيد بن مالك. مختبر بنغازي للسيميائيات وتحليل الخطاب. الملتقى الدوري الّذي يقام سنويا بجامعة محمد خيضر ببسكرة، والموسوم بـ «السيمياء والنصّ الأدبي».

2- تخصيص الكثير من المجلات العربية كلّ أبحاثها أو جلّها على مدارسة النظرية السيميائية، وارتباط عنوان المجلة بموضوع السيمياء من ذلك مثلا مجلّة علامات ومجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية المغربيتين، مجلة علامات في النقد السعودية، مجلة أيقونات السيميائية الجزائرية وغير ذلك كثير.

3- مستوى الترجمة: من منطلق أن الاتجاه السيميائي هو موضة النقد المعاصر فإن أغلب المترجمين يركّزون في اختياراتهم على ترجمة النصوص النقدية الّتي لها علاقة بالاتجاه السيميائي.

4- مستوى التأليف: معظم المؤلّفات العربية الأكاديمية وغيرها أصبحت تنشغل في العقدين الأخيرين بمحاولة مكاشفة البحث السيميائي الغربي ومختلف التحولات الّتي طرأت عليه.

غير أنّ جلّ هذه الأبحاث الّتي أسيل فيها الحبر الكثير، واحتدّ فيها النقاش والجدال ظلّت مرتبطة بمعاينة أصول الاتجاه السيميائي ومتابعة مختلف التحوّلات التي وسمته مع تحديد معالمه وكشف أسراره وإجراءاته المنهجية في سبيل الاستفادة منها في تحليل النص الأدبي الشعري والسردي عند العرب. ومن هذا المنطلق فإن الحاجة تصبح ملحّة إلى ضرورة التوقّف قليلا عن هذا الفرز والتفصيل المملّ أحيانا للوقوف وقفة تأمّل نحو هذا المشروع السيميائي العربي للنظر في مدي تمكّنه من استلهام المنجز الغربي تنظير وتطبيقا من جهة، ومن جهة أخرى في مشروعيته وقدرته على استكشاف الظواهر الإنسانية عموما والأدبية خصوصا المثقلة بالحمولات الرمزية والأسطورية.

ولعلّ محاولة الإحاطة بهذا المشروع السيميائي العربي وكشف مساوئه ومثالبه ليست بالأمر الهيّن، فهي تحتاج من الجهد والعنت ما لا تسمح به هذه المقاربة القرائية. ولذلك اختار الباحث أن يرّكز بحثه على قراءة نقدية لبعض الدراسات الّتي اعتمدت المنهج السيميائي في قراءتها للنصّ الشعري العربي. وقبل المضي في هذه المقاربة النقدية يجدر العودة قيد أنملة إلى محاولة بسط جلّ المقاربات السيميائية العربية من أجل تحديد روادها وأقطابها، والتّي من شأنها أن تكون خادمة للبحث، واضعة القارئ على عتبة القراءة، كاشفة بعض دهاليزها.

السيميائية العربية ونقد الشعر:

إنّنا إذا أردنا أن نميل بأعيننا عبر محطات التجربة السيميائية العربية فإنّنا نكاد لا نلفى- في حدود علمنا ممّا هو منشور على الساحة العربية- إلا بعض المؤلفّات الّتي نعدّها قليلة، حاول أصحابها الاقتراب من النص الشعري العربي اعتمادا على الاتجاه السيميائي. فمعظم الدراسات الّتي قدّمت حول هذا الاتجاه كانت نظرية، إذ بعضها مترجم، وبعضها يغلب عليه التأريخ والتعريف والتفسير والتصنيف، وما كان منها تحليليا كان جانب منه خاص بالنصّ السردي. فالممارسة التطبيقية للمنهج السيميائي في نقد الشعر لم يكن لها مثل ذلك الحظ

الوافر الّذي كان للممارسة النظرية. ولعل ذلك إنّما يعود إلى صعوبة الانتقال بالمنهج من مهاده النظري إلى طبيعته الإجرائية المحفوفة بالمزالق والمشاق، والّتي يحتاج صاحبها إلى إلمام واسع بالمنهج وحدوده وطرائق عمله. وعلى هذا الأساس فإنّ إطلالة على مختلف الممارسات السيميائية الّتي حاولت الاقتراب من النص الشعري تكشف لنا تباينا بين هذه المقاربات ممّا يحدو بنا إلى تصنيفها إلى صنفين: صنف ما زال بعد في محاولة فكّ طلاسم السيميائية، رؤيته غائمة، ومنهجه غامض غير متماسك، لم يستوعب بعد حدود عمله، ومواطن انشغاله. أفكار مبعثرة، ومفاهيمه مبهمة. أمّا الصنف الآخر فهو ذاك الّذي خطا أشواطا في البحث السيميائي، فهو متمكّن من منهجه، مستوعب لأفكاره ومعارفه، منظم في طرحه، عارف بأهدافه ومراميه. ونجد مثل هذا النوع من المقاربات عند بعض أهل الاختصاص من الباحثين والأكاديميين الّذي استطاعوا أن يتمثّلوا "المنهج والنظرية السيميائية في شمولها وتجانسها"a.

ولعلّ أشهر من تمثّل المنهج السيميائي في شموليته وتجانسه هو الناقد المغربي محمد مفتاح الّذي كان له قدم سبق في هذا المجال، حيث نشر كتابه الأوّل الموسوم «في سيمياء الشعر القديم» سنة 1982. وقد كان هذا الكتاب عبارة عن دروس أعدّها صاحبها ليلقيها على طلبته وذلك خلال السنة الدراسية 1981-1982. وكان هدفه آنذاك- على حدّ قوله- هو زرع روح البحث المتعمّق في طلبته، وتمكينهم من الانفتاح على عوالم جديدة في دراسة الأدبb. وقد اختار قصيدة أبي البقاء الرندي «النونية» كي تكون المدوّنة الّتي يستعرض من خلالها أسلحته الجديدة الّتي استلهمها ممّا جاد به الخطاب النقدي الحديثc. كما قام محمد مفتاح بمقاربة سيميائية أخرى لقصيدة ابن عبدون الرائية من خلال كتابه «تحليل الخطاب الشعري- استراتيجية» الّذي كانت طبعته الأولى سنة 1985. وبعد التطوّرات الّتي حدثت على الممارسة السيميائية للنص الأدبي من خلال استخدامها لبعض المفاهيم الفيزيائية والبيولوجية والرياضية والمعلوماتية مثل التشعب النموذجي والدينامي، والتحكّم الذّاتي، والتفرّد والذاكرة الطويلة والقصيرةd، يضع محمد مفتاح سنة 1987 أمام القارئ العربي- ومواكبة لهذه التحوّلات- مقاربة جديدة للنصّ الشعري العربي تستثمر هذه المفاهيم الجديدة الّتي لاحت في سماء الدرس السيميائي الحديث، ويعرضها من خلال كتابه «دينامية

النصّ– تنظير وإنجاز».

وإذا كان محمد مفتاح سباقا إلى مبايعة المنهج السيميائي في مقاربة النص الشعر العربي، فإنّ الّذي حمل المشعل بعده دون منازع هو الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض الّذي كانت أوّل تجاربه مع المنهج السيميائي في نقد النص الأدبي سنة1989، حينما نشر دراسته الموسومة بـ«ألف ليلة وليلة- تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد». ويعدّ هذا المنهج المركّب بين السيميائية والتفكيكية هو الديدن المنهجي الّذي سلكه الناقد في جلّ مقارباته النقدية للنص الأدبي، حيث نشر سنة 1992 دراسته الموسومة «أ/ي- دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة (أين ليلاي) لمحمد العيد آل خليفة». ثمّ نشر سنة 1995 دراسته الموسومة «تحليل الخطاب السردي- معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة لرواية زقاق المدق». وبعد هذه المعاشرة لهذا المنهج المركّب (السيميائي التفكيكي) عبر ثلاثة دراسات رأى الناقد أن يكتشف ثمار تزاوج الدرس السيميائي مع الدرس الأسلوبي، فكان من نتاج ذلك دراسته الموسومة بـ «شعرية القصيدة قصيدة القراءة- تحليل مركب لقصيد أشجان يمانية».

ويبدو ممّا لا شكّ فيه أنّ محمد مفتاح وعبد الملك مرتاض هما الناقدان الوحيدان اللذان التزما التزاما بيّنا بمحاولة نقل المناهج النقدية المعاصرة وخاصة منها المنهج السيميائي من مهادها النظري الّذي طغت عليه التعريفات والتصنيفات والتعليقات إلى فعل الممارسة النقدية، وذلك بالاقتراب من النص الأدبي من خلال استثمار التقنيات والإجراءات الّتي أفرزتها هذه المناهج، رغم ما في ذلك من عقبات ومزالق تحفّ بمثل هذه المحاولات. وقد آثر بعض الباحثين عدم المغامرة كثيرا في مثل هذه السهوب المليئة بالوهاد والصبّريات، والاكتفاء بقراءة واحدة تكون جادة، أو بعض المحاولات الجزئية الّتي لا ترقى إلى ما يسمّى بالقراءة الشمولية.

ومن القراءات الجادة التّي استثمرت المنهج السيميائي في مقاربتها النص الأدبي ما قام به الناقد محمد السرغيني في كتابه الموسوم بـ«محاضرات في السيميولوجيا» الّذي نشره سنة 1987م، حينما حاول- بعد استعراضه للنظرية السيميائية- تطبيق الآليات والإجراءات الّتي أفرزها المنهج السيميائي على قصيدة المواكب لجبران خليل جبران .

كما قدّم أيضا الناقد عبد القادر فيدوح من الجزائر سنة1993 دراسته الموسومة « دلائلية

النصّ الأدبي – دراسة سيميائية في الشعر العربي المعاصر»، حيث تعرض فيها إلى مطارحة النظرية السيميائية وكيفية تعاملها مع النصّ الأدبي، والأبعاد التأويلية لهذه النظرية، مطبّقا منهجه في الدراسة على نموذج من الشعر الجزائري القديم وهو القصيدة النونية للشاعر بكر بن حمّاد. ونماذج أخرى من الشعر الجزائري المعاصر أطلق عليها اسم «الأقلام الغضّة».

وفي سنة 1995 يقدّم صلاح فضل من مصر دراسته الموسومة بـ«شفرات النصّ- دراسة سيميولوجية في شعرية القصّ والقصيد» وهي عبارة عن مجموعة من المقاربات النقدية لبعض النصوص الشعرية والقصصية. وقد أشار صاحبها إلى أنّ هذه المحاولة الّتي قام بها إنّما تريد أن تخرج من قمقم التكوينات النظرية الّتي ترتبط بالأسماء والمصطلحات، وتغرق في الأفكار والمبادئ، مرتادةً آفاقا جديدة في التحليل النقدي، من منظور تطبيقي. وقد يسمح لنا أستاذنا صلاح فضل أن نفتح هاهنا عارضتين لنقول أنّ القارئ قد يساوره نوع من الشكّ إزاء هذه المقاربات الجادة من حيث أنّها لم تكن محصلة رؤية منهجية محدّدة، وإنّما كانت عبارة عن دراسات عامة غير خاضعة لتصّورات قبلية ترتبط أساسا بخصوصية المنهج السيميائي، وإن كان هذا المنهج هو الخيط الّـّذي يربط بين هذه الدراسات جميعها. والدليل على ما ذكرته هو أنّ الناقد لم يكن يشير إشارات بائنة إلى أنّ منهجه في الدراسة سيكون منهجا سيميائيا أو يستثمر بعضا من الإجراءات السيميائية، وإنّما يأتي الحديث عن هذا المنهج حديثا عابرا ومقتضبا لا ينمّ عن رؤية منهجية مسبقة. وكأنّ هذه الدراسات الجادة كانت نتاج قراءة حميمية مع النصّ دون ارتباط علمي واضح بمنهج محدّد من المناهج النقدية المعاصرة.

وفي سنة 1996 يقدّم محمد عزّام من سوريا دراسته القيّمة «النقد والدلالة- نحو تحليل سيميائي للأدب»، وهي عبارة عن بحث في النظرية السيميائية، حيث يوقف ثلاثة فصول كاملة للحديث عن ماهيتها وتاريخها ومختلف اتجاهاتها المعاصرة، ومناهج تحليلها للنص الأدبي، متطرّقا بالبحث عن حقيقة البحث اللسانياتي السيميائي في النقد العربي قديمه وحديثه. متوّجا هذا البحث بدراسة تطبيقية لنموذج من الشعر المعاصر، حيث يقوم بمقاربة سيميائية لقصيدة «شاهين» للشاعر السوري محمد عمران المأخوذة من ديوانه «أغان على جدار

جليدي».

وإلى جاب هذه الدراسات القيّمة والشاملة الّتي اهتمّت في جانب كبير منها بمطارحة النظرية السيميائية في مؤلّف واحد أوّ عدّت مؤلّفات توضيحا لماهيتها وعرضا لتاريخها واتجاهاتها ومناهجها، فإنّ باحثين آخرين اكتفوا بقراءات تطبيقية عرضوها على صفحات بعض الجرائد والمجلاّت. وهذه الدراسات قد يصعب تحديدها أو استقصاؤها، ولكن يمكن الإشارة إلى بعض منها، مستهلّين ذلك بالحديث عن تلك إحدى الدراسات الجادة والرائدة في هذا المجال، والّتي قام بها الدارس موريس أبو ناضر، والموسومة بـ «دراسة سيميولوجية: قصيدة المواكب» وكان قد نشرها بمجلة الفكر العربي المعاصر الكويتية سنة 1982. كما يمكن أن نذكر أيضا الدراسة الّتي قدّمها حميد سمير من المغرب، والموسومة بـ «مقاربة سيميائية حول رؤية الشعر وشعر الرؤية عند المتنبّي» والّتي نشرها سنة 1999 بمجلة البيان الكويتية. وهناك دراسات كثير لا يمكن الكشف عنها جميعا مبثوثة هنا وهناك في الجرائد والمجلاّت والكتب الجماعية من ذلك ما نجد في تقدّمه بعض دراسات الجامعية العربية مثل كتاب «محاضرات السيمياء والنصّ الأدبي» الّذي يصدر قسم اللغة والأدب العربي بجامعة خيضر- بسكرة- الجمهورية الجزائرية.

وقد رأت جميع هذه الدراسات أن تتبنى المنهج السيميائي في قراءاتها للنص الأدبي من خلال استثمارها لبعض آلياته وإجراءاته. ورغم التباين الظاهر بين هذه الدراسات إلاّ أنّ الخيط الّذي يربط بينها جميعا هو محاولتها لإعادة قراءة النصوص العربية وفق ما أفرزته المناهج النقدية المعاصرة.

ونظرا لطبيعة هذا البحث من حيث هو محدوديته فإنّ الباحث سيحصر قراءته للتجربة اليسمائية العربية في نقد الشعر على طبيعة المنهج المستخدم مستندا إلى بعض النماذج الكبرى الّتي مثّلت التيار السيميائي في النقد العربي وهم النقّاد محمد مفتاح، عبد الملك مرتاض وصلاح فضل.

أ- طبيعة المنهج السيميائي:

إنّ القراءة السيميائية للنص الأدبي لا تعني بحال من الأحوال أن صاحب القراءة سيكتفي في دراسته بما يحفل به المنهج السيميائي من آليات وإجراءات، وإنّما تجده يستعين بما في

المناهج والنظريات النقدية الأخرى من إجراءات من شأنها أن تحقّق ما يبتغيه من بحثه. وذلك انطلاقا من أنّ المنهج السيميائي هو نفسه- مثل باقي المناهج النقدية الأخرى- لم يولد من العدم، وإنّما هو نتاج عصارة مناهج وعلوم مختلفة. فالسيميائية إنّما تستمدّ- كما صرّح بذلك رولان بارت- مفاهيمها الإجرائية من اللسانيات الّتي ما لبث ينخرها التفكّك والتقويضe. ولعلّ الفرق الجوهري بين السيميائيات واللسانيات هو أن السيميائيات لا تقف عند حدود الجملة بوصفها أكبر وحدة لغوية كما هو الشأن في اللسانيات، إنّما تتجاوز ذلك إلى دراسة الخطاب في بعده السردي. فإذا كانت اللسانيات تهتمّ بدراسة تشكيل الجمل وإنتاجها وتحديد قدراتها، فإنّ السيمائيات تشتغل بدراسة بناء الخطابات والنصوص وكيفية تنظيمها وإنتاجها وكشف قدراتهاf.

وإذا كان المنهج السيميائي قد استخدم ما أفرزته اللسانيات السوسيرية من مقولات ومفاهيم وإجراءات فإنّ تأثره بدا واضحا باللسانيات البنوية التّي هي الأب الروحي والفعلي للمدرسة السيميائية. ولعلّ هذا التقارب الواضح بين المدرستين قد جعل الأمر يبدو عسيرا في التمييز بين حدودهما. ولصعوبة ذلك قام جوناثان كولر بالتمييز بينهما جغرافيا، حيث حصر الممارسة البنوية بالخطاب النقدي الفرنسي، متجاهلا أنّ الباحثين الفرنسيين أنفسهم قد زاوجوا بين الحقلين، بل إنّ تيرنس هوكس هو نفسه وصل إلى الإقرار بأن هناك تطابقا بيد حدود النظريتين السيميائية والبنوية، متنبئا بأنّهما سيشكلان على المدى الطويل منهجا جامعا أو مركّباg. كما أكّد بول ديمان أنّ السيميائية ما هي إلاّ نتاج "الالتقاء «التفجيري» بين نباهة العقل الفرنسي والأدبي ومصطلح الشكل"h. وقد دعّم الخطاب النقدي العربي هذا التوجه البنوي للسيمياء الحديثة، مؤكّد على الطابع البنوي للمنهج السيميائي. وفي هذا الشأن يشير عبد الله الغذامي إلى أنّ الدراسة السيميولوجية هي "ندّ نقدي يعضّد البنيوية، ويتضافر معها في سبيل استكشاف النصّ ودراسته على منطلقات الألسنية ومبادئها"i.

ورغم التداخل الواضح الّذي ينكشف بين التوجهين السيميائي والبنوي إلاّ أنّ هناك بعض الفروق الجوهرية الناشئة من اختلاف الرؤية والمقصد. فإذا كانت البنوية تدرس العلامات بوصفها جزءا من نظام سواء أقرّته الثقافة أم لم تقره، فإنّ عمل السيميائية يقتصر على "دراسة الأنظمة العلامية الموجودة أصلا في الثقافة، والتّي عرفت على أنّها قارة قائمة في

بيئة محدّدة"j.

وهكذا فإنّ إطلالة على المقاربة السيميائية العربية للشعر تكشف للقارئ ذلك التنوع في الإجراءات والمقولات التّي عرفها من قبل في المناهج النقدية السالفة، حيث نجد أن رائد النقد السيميائي العربي محمد مفتاح يذكر ذلك صراحة في مقدمة كتابه «في سيمياء الشعر القديم»، حيث يشير إلى أنّ منهجه الّذي سيتبعه في دراسته للشعر يدخل ضمن نطاق ما يسمّيه بالقراءة المتعدّدة، حيث سيزاوج فيه بين عصارة ما أنتجه المنظومة النقدية العربية، وما انتهت إليه الدراسات الشعرية السيميائية حديثاk. وقد أشار محمد الداهي إلى إلى هذه التعددية المنهجية الضاربة بجذورها في هذا الكتاب حيث أكّدّ على أنّ محمد مفتاح لم يعتمد على المنهج السيميائي فحسب، وإنّما زاوج بين عدّة مناهج هي: الشعرية بشقيها العربي والغربيl، السيميائية، التداولية والفيلولوجية. ولافت للنظر في هذا الكتاب - حسب رأيه- هو "أنّ صاحبه اتبع القراءة الموازنة الّتي تتعامل مع القصيدة بمنظار الشعرية العربية ومقاييسها، وتستثمر آراء المحدثين الّذين قوّموا ما في بعض آراء القدامى من خروج على جادّة الصواب وتَفْتَتِحُ على الإسهامات الغربية الّتي تقدّم إضاءات جديدة ومفيدة حول بنية الخطاب الشعري. كما نهج القراءة الكلّية الّتي تنظر إلى جميع العناصر والمستويات في تضافرها وتفاعلها"m.

ولي أن أتدخّل هاهنا لأكشف أمرا بالغ الأهمية مفاده ما يشاع عادة على أنّ هناك تعددا منهجيا لدى هذا الباحث أو ذاك كما يبدو في قول الناقد محمد الداهي. وهذا الكلام- حسب رأيي- مردود، لأنّ المنهج بوجه عام هو الوسيلة التي نتبعها من أجل الوصول إلى تحقيق غاية معينة. ولذلك كان المنهج العلمي هو تلك الخطّة المنظمة "لعدّة عمليات ذهنية أو حسّية، بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها"n، أو هو- كما حدّده سعيد علوش في معجمه- "سلسلة من العمليات المبرجة، والّتي تهدف إلى الحصول على نتيجة مطابقة لمقتضيات النظرية"o. ومن ثمّ فإنّه لا يمكن الحديث عن تعدد للمناهج في دراسة ما، وذلك من منطلق أنّ هناك منهج أو اللامنهج. والقول بتعدد المناهج في تلك الدراسة معناه أنّ صاحبها ليس له منهج، فهو يهذي أو يتبّع طرائق شتّى لا توصل إلى نتيجة معينة. وعلى هذا الأساس فإنّ تنويع الدارسين والنقاد في إجراءاتهم ومقولاتهم بين مناهج مختلفة ليس

معناه أنّهم يستخدمون تلكم المناهج كلّها في دراستهم، وإنّما فقط يستفيدون من تلك المناهج فيما يسمح لهم بتحقيق مآربهم النقدية. وعليه نقول أنّ منهجهم هو الأخذ من كلّ شيء بطرف.

ووفق هذا المنحي يمكن قراءة التوجه المفتاحي(محمد مفتاح) في مطارحاته النقدية للنص الشعري العربي، حيث نجده في عمله الموالي وهو «تحليل الخطاب الشعري- استراتيجية التناص» يقوم بقراءة لقصيدة ابن عبدون الرائية، فيكشف في مدخل القراءة أنّه وقع في شيء من التردّد وهو بصدد الاختيار بين مدرستين كبيرتين: اللسانيات والسيمائيات من حيث أولوية إحداهما لتدريس الخطاب الشعري. وقد هداه تصوّره إلى رفض خيار الاختيار بينهما، والاحتكام بذلك إلى المنهج المتعدّد الّذي يسمح للدراس بالاستفادة من المناهج جميعا بما يخدم نصّه، وليس العكس. وذلك من منطلق أنّ "أيّة مدرسة لم تتوفّق إلى الآن في صياغة نظرية شاملة، وإنّما كلّ ما نجده هو بعض المبادئ الجزئية والنسبية الّتي إذا أضاءت جوانب بقيت أخرى مظلمة"p. ورغم إيمان الناقد مفتاح بأهمية المنهج المتعدد أو الأخذ من كلّ شيء بطرف، وشعوره بقصور النظرة الأحادية في التعامل مع النص الأدبي إلاّ أنّه موقن في الوقت ذاته بصعوبة هذا التوجّه لما "يتضمّنه من مشاق ومزالق. ذلك أنّه إذا كان استيعاب نظرية لغوية واحدة لمدرسة واحدة يتطلّب جهودا مضنية ووقتا مديدا، فإنّ ما يحتّمه تفهّم نظريات مختلفة يفوق ذلك أضعافا مضاعفة، وكذلك أنّه إذا كان أتباع النظرية الواحدة يقي من الانتقائية والتلفيقية، فإنّ الأخذ من نظريات مختلفة يحتّم الانتقائية، ولكنّه لا يؤدّي حتما إلى التلفيقية بالضرورة. لأنّ آفة الانتقائية لا تصيب إلاّ من كان ساذجا مؤمنا إيمانا أعمى بما يقرأ، غير متفطّن للظروف التاريخية والابستيمية الّتي نشأت فيها النظريات، وغير قادر على تمييز الثوابت من المتغيّرات في كلّ منها، وعلى ما تجتمع عليه وتفترق"q.

وانطلاقا من الحذر الشديد الّذي تتعامل به التيارات اللسانية المختلفة مع كافّة أشكال الخطاب الأدبي، واتكاء على سقوط معالم الثنائية المانوية الحادة في الخطاب النقدي المعاصر، فإنّ الناقد محمد مفتاح يدعو إلى فرز هذه المواقف الّتي طرحتها هذه التيارات، والتعرّف على خلفياتها الفلسفية المعلنة أو المضمرة من أجل استيعاب منطلقاتها، ومحاولة

استثمارها في بناء منسجم. كما أن الفرز يجب أن يطال الإجراءات أيضا، إذ يرى أنّ "كلاّ منها يلقي الضوء على جانب ما من الظواهر اللغوية، ولذلك فهي تتكامل أكثر ممّا تتناقض، الشيء الّذي يتيح للباحث أن يركّب بين جزئياتها- بعد الغربلة والتمحيص- ليصوغ نظرية لتحليل خطاب ما"r. وانطلاقا من هذه الفرضية راح الناقد محمد مفتاح يناقش هذه الإجراءات ومناهجها مخالفا ومعترضا، واقفا إزاء ما هو مطروح في هذه المناهج المعاصرة وقفات ثلاثs:

أ- قبول الآليات والإجراءات المتفق عليها مثل نظام المقاطع، ونبر الكلمات، وبعض أمثلة النظرية الجشطالتية، والمواجهات.

ب- مناقشة مفهوم النموذج لكشف عيوبه، وإعادة تصنيفه عن طريق الإضافة والحذف مثل نموذج الأفعال الكلامية ونموذج كريماص.

ت- إعادة النظر في بعض المفاهيم والمقولات والآليات الّتي ما زالت ملتبسة في لغاتها أو في المنظومة النقدية العربية مثل قانون التشاكل واللعب، ونظرية التناص والتفاعل.

وعلى هذا الأساس نجد أن محمد مفتاح لا ينطلق من المنهج كي يصير إلى النصّ، وإنّما ينطلق من النص ليصير إلى المنهج. فالنصّ هو الّذي يفرض خصوصيته، ويدعو صاحبه إلى احترام نوازعه وتطلّعاته، ليكون المنهج، بعد ذلك، هو خادم النص لا سيّده، فهو يحاول ما استطاع أن يتكيّف مع بنيته المختلفة والمتغيرة كي يكون جدير بفهمه وكشف مغالقه. وهكذا فإنّنا إذا أردنا أن نحدّد طبيعة المنهج الّذي يعتمده محمد مفتاح سنجد أنّه -كما يقول الطاهر الروابنية- "يربط إجراءاته المنهجية ويكيّفها بحسب ما تقتضيه خصوصية النصّ من تجريد منهجي يتعلّق بالتكوين والتجلّي الحيّ للنصّ. أو يتعلّق بالمعرفة الخلفية والجمالية الّتي ينطلق منها ليخرقها أو يعدّلها أو يتجاوزها"t.

ولعل هذا التوجّه نحو المنهج المتعدّد في المقاربة السيميائية للنّصّ الشعري لم تنحصر في كتابات محمد مفتاح ولكن نجدها عند غيره أيضا كما هو الحال عند الناقد عبد الملك مرتاض الّذي لم يرحل بالقارئ بعيدا عن التصورات الّتي طرحها من قبل محمد مفتاح. فرغم أن الباحث يكشف في بعض مقارباته للنص الشعري العربي عن توجّهه السيميائي أو

السيميائي التفكيكي من خلال عناوين بحوثه إلاّ أنّه يبدي رفضه لأحادية المنهج، ويرى في ذلك تعصّبا، والتعصّب ليس من سلوك الباحث العلمي، حيث يقول في كتابه «التحليل السيميائي للخطاب الشعري- تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي»u: "لا يوجد منهج كامل، مثالي؛ لا يأتيه الضعف من بين يديه من خلفه. وإذن، فمن التعصّب (والتعصب سلوك غير علمي ولا أخلاقي أيضا) التمسّك بتقنيات منهج واحد على أساس أنّه، هو وحده، ولا منهج آخر معه، مَجْدُرَةٌ أن يُتبع. (...) فإذا سلّمنا بأنّ كلّ منهج ناقص، وكلّ ناقص يفتقر إلى كمال؛ وكلّ كامل مستحيل على هذه الأرض؛ واقتنعنا بضرورة تضافر مساعي كلّ الكفاءات النقدية، والعبقريات التنظيرية لمحاولة إيجاد مقاربة منهجية تبتعد، ما أمكن، عن النقص والخلل، وتزدلف، ما أمكن، من الكمال دون الترويج بتعصّب أعمى لإديولوجيا معينة؛ وخصوصا في عهد جنحت فيه الإيديولوجيّات للأفول والذبول، بعد توهّج وعنفوان، واغتدى النّاس لا يبحثون في أيّ مبدإ من المبادئ إلاّ على أساس من منفعته إن كانوا ساسة، وإلاّ على أساس من حقيقته وموضوعيته إن كانوا علماء"v.

وهكذا فإنّ مرتاض يخرج عن المنظار الضيق الّذي يتعامل به الدارسون مع قضية المنهج، فيمضي بعيدا لينظر إلى هذه القضية بمنظار عام، وهو المنظار الكوني الّذي يتميّز بسيطرة بعض المقولات الوجودية عليه، ومنها مقولة النسبية الّتي ترى أن العالم الإنساني يفتقد إلى الكمال والإطلاق، فهو يتميّز بالنقص وعدم الاكتمال. وقد عرض لهذا الأمر في قوله السابق. وكذلك مقولة التراكمية الّتي تكشفها الطبيعة التطورية للموجودات والأشياء. وفي هذا الشأن تجده يقول: "معظم هذه المناهج موروث بعضها عن بعض، وقائم بعضها على بعضها الآخر، إذ لا البِنَوِيَّة، ولا نزعة التحليل النفسي الّتي لا تتورّع في أن تتطاول على تحليل النصّ الأدبي- كما تتطاول على مرضى النّفوس والعقول- ولا السيميائية، ولا الأسلوبية نفسها، قادرة إحداهنّ على أن تزعم للنّاس أنّها ناشئة من عدم، وأنّ كلّ أدواتها التقنيّة، وإجراءاتها المنهجية، وأصولها المعرفية، ومصطلحاتها المجسّدة لمفاهيمها: جديدة. فاللسانيات إنّما نهضت على جهود النّحاة وفقهاء اللغة، وربّما على بعض جهود المعجميين أيضا. كما أنّ الأسلوبية، على الرغم من أنّها مجرّد فرع من اللسانيات من الوجهة التصنيفية،

إلاّ أنّها قامت على أنقاض البلاغة بفروعها الثلاثة: البيان، والمعاني، والبديع. في حين أنّ البِنَوِيَّة لم تنهض، في أسسها العامة، إلاّ على أنقاض الشكلانيين الرّوس، وعلى نظرية الثنائية الدلالية لدى صوسير"w.

وركحا على هذا الطرح يكشف مرتاض الطبيعة العامة للمنهج، وصفته العلائقية (Relativité)، ليؤكّد على النسق التركيبي للمنهج السيميائي، إذ يرى أنّ المدرسة السيميائية ما هي إلاّ "خليط من اللسانيات، والنحويات، وربّما البلاغيات أيضا"x. وتأسيسا على ذلك يوضح مرتاض أن تموقعه ضمن محيط القراءة السيميائية، لا يعني انحصاره وتقوقعه داخلها، وعدم استفادته مما تزخر به المناهج الأخرى. إذ لا بأس- حسب رأيه- من التحلّل من هذا التقوقع للانتشار خارج فضائه كلّما ارتأينا ذلك ضرورة لإشباع النصّ بالتحليل، ولإثراء مفهوم التشاكل بحيث يغتدي صفيحة حسّاسة قابلة وقادرة معا على التحرّك في أيّ اتجاه شئناه لها"y.

أمّا الناقد المصري صلاح فضل فإنّه يكشف في مقاربته لقصيدة صلاح عبد الصبور «شجر الليل» عن أهمية المنهج السيميائي في قراءة النص الأدبي ودوره الكبير في فكّ شفراته الرمزية التّي تختلف نوعيا - حسب رأيه- عن "عمليات الترميز المذهبية الّتي عرفتها الآداب الغربية وسرت عدواها إلينا قليلا منذ مطلع هذا القرن"z. ونظرا لهذا التباين بين الرمزية العربية والرمزية الغربية، واستنادا إلى أنّ المنهج السيميائي ما زال غريبا عن القارئ العربي، ومثيرا للدهشة في بعض الأحيان فإنّ الناقد صلاح فضل يقرّ بعد اعتزامه تطبيق هذا المنهج تطبيقا حرفيا، انطلاقا من رغبته في الحفاظ على حرّيته المنهجية الكاملة الّتي تجعله يختار من بين الإجراءات السيميائية ما يفيد منهجه، ويترك ما لا يحقّق أهدافه ومراميه، "التزاما بمنطق القراءة ذاتها، وخضوعا لجاذبية النصّ دون محاولة لقسره كي يجيب على أسئلة مطروحة مسبقا دون التعرّف الحميم عليه في مكوّناته الّتي تفرض عناصرها على القارئ، والتزاما من جانب آخر بمراعاة محور الفاعلية المنبثق من حركة الضمائر وتداخلها وترائيها الّ ّذي بدأنا في تركيز بؤرة التذوّق حوله في هذا البحث دون أن نتركه بدوره يستقطب طريقة تمثّلنا لشفرات النصّ، ويعوق عملية التفاعل التوصيلي معه على المستويات الأخرى"aa.

وهكذا يؤكّد لنا الناقد صلاح فضل قصور المنهج الأحادي في مقاربة النص الأدبي، داعيا إلى الحرية المنهجية الكاملة الّتي تكرسّها القراءة الّتي تأخذ من كلّ منهج بطرف. وكأنّ الأستاذ صلاح فضل إنّما يريد أن يعود بالنقد إلى عهده الأوّل حينما كان خاضعا لسلطة النصّ، لا سلطة المنهج. وهو إذ يدعو إلى ذلك إنّما يسعى إلى المحافظة على طبيعة العلاقة الحميمية الّتي تربط بين النصّ والقارئ، هذه العلاقة الّتي أصبحت تدنّسها، في كثير من الأحيان، العصبية المنهجية والصرامة الإجرائية.

خلاصـــة:

استناد إلى هذه الطروحات الّتي كشفتها هذه المقاربات السيميائية للنصّ الأدبي يمكن الخروج بعدة نقاط هامة نأتي بها على النحو الآتي:

1- إنّ عملية التنظير للمنهج وكشف ملابساته وتحديد مفاهيمه وإجراءاته تظلّ أمرا هيّنا إذا ما قورنت بما يلاقيه النقاد من عنت وجهد في عملية نقلهم للمنهج من حدوده النظرية إلى جانب الفعل والممارسة، وذلك باتخاذه منهجا للقراءة النصانية.

2- إنّ النقد الّذي يسعى جاهدا إلى تحقيق وجوده بعيدا عن سلطة النصّ ومداراته فإنّه مهما توطّدت أركانه وارتفعت جدرانه، وتعددت وسائله وإجراءاته، يظلّ قاصرا عن الوصول إلى مكاشفة الحقيقة الجمالية الّتي يختفي وراءها النص الأدبي، والّتي تجعل منه نصّا مختلفا، مؤثّرا ومدهشا.

3- إنّ تواري الناقد خلف ما أصبح يسمّى بالمنهج المركّب لهو دليل على قصور هذه المناهج ومحدودية إجراءاتها من جهة، ومن جهة أخرى ارتباط الناقد بالحرية المنهجية الّتي تسمح له بالتحرّر من سلطة المنهج، والدخول في علاقة حميمية مع النصّ، ممّا سيمكّنه من فكّ مغالقه، وكشف أسراره ومكبوتاته.

4- إنّ المنهج السيميائي مثل غيره من المناهج النقدية الأخرى يركن إلى مبدأين أساسيين هما: النسبية والتراكمية؛ فهو منهج نسبي من حيث افتقاده للكمال المنهجي إذ هو في حاجة ماسّة إلى تطوير نفسه، واستثمار ما لا يدخل تحت دائرته المنهجية من مقولات وإجراءات، وتراكمي من حيث أنّ أيّة معرفة لا تولد من العدم، وإنّما هي حصيلة تجارب

سابقة، فهو في أصله منهج مركّب من مناهج سابقة أو مجاورة. وعليه فإنّه مهما اختلفت المناهج الّتي يستخدمها النقاد في مقارباتهم للنصوص الأدبية فإنّ الاختلاف يبقى ظاهريا، لأنّ المنهج المتبع فيها جميعا هو واحد وهو منهج النصّ، لا منهج الناقد.

5- إن الاحتفال بالمناهج الغربية يظلّ حجرة عثرة ما دام الناقد العربي ما زال مهووسا بالمنتج الغربي، يجتره اجترارا، حتّى إنّك لتجده على المستويين النظري والتطبيقي لا يكلّ ولا يملّ في متابعة هذه المناهج في كلّ تحولاتها وانعراجاتها، وكأنّه كغيره من أبناء هذه الأمة المتأخّرة المتأثّرة بالغرب ينتظر في أحدث الموضات والمديلات الغربية حتّي يستطيع أن يشعر بمدى تطوّره في مجال الدراسة الأدبية.

6- إنّ المدرسة السيميائية ليست مدرسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وإنّما كغيرها من المدارس لها سلبياتها ونقائصها، وهذا ما أعلن عنه صراحة روادها في الغرب قبل العرب، حيث اعتبر رولان بارت أنّ السيمائية "ليست فنّا ميّتا فيزيقيا، وإنّما هي علم من بين علوم أخرى تعتبر ضرورية، لكنّها غير كافية"bb. كما كشف تودوروف أنّ السيميائية ليست علما متكاملا ونظاما معرفيا مؤسسا تأسيسا سليما، وإنّما هي مجرّد مجموعة من الاقتراحات فحسبcc. أمّا مارسيلو داسكال فإنّه يرى أنّ السيميائية ما زالت بعد في مرحلة الطفولة أو ما قبل الأنموذج، من منطلق أنّها تفتقر إلى التجانس المنهجي والمفاهيمي. كما أنّ منهجها يفتقر إلى الصرامة العلمية، فهو غارق في التجريد والمنطق، خاصة فيما يتعلّق بالمربّع السيميائيdd. كما يذهب روبرت سكولز إلى أنّ السيميائية "لم تعد دراسة العلامات بقدر ما هو دراسة الشفرات؛ أي دراسة الأنظمة الّتي تساعد المخلوق الإنساني على إدراك الأحداث والكينونات بوصفها علامات تحمل معنى"ee.

7- إنّ المنهج السيميائي مثل غيره من المناهج الأخرى قاصر بمفرده للوصول إلى المكامن الجمالية للنص الأدبي. ولذلك فمن دون تكاتف المناهج الأخرى يظلّ هذا المنهج عاجز عن الوصول إلى تحقيق أهداف القراءة الشمولية للنصّ الأدبي.

8- إنّ المنهج السيميائي مثل غيره من المناهج الأخرى لا يستطيع أن يحقّق أهدافه ومرامية من خلال فرض منطقه وقوانينه وإجراءاته على النصّ الأدبي، وإنّما عليه أن يترك للنصّ الحرّية كي يحدّد طرائق التعامل معه، من منطلق أنّ لكلّ نص خصوصياته وفرادته.

وتأسيسا على ذلك فإنّ دعوة السيميائيون العرب إلى نوع من الحرّية في التعامل مع النصّ الأدبي لا تعني، بحال من الأحوال، دعوة إلى اللامنهج كما فسّرها بعضهم، وإنّا هي دعوة إلى منهج يفرضه النصّ وتؤطّره وتدعّمه المناهج المختلفة، مع الاعتماد على المنظومة النقدية القديمة سواء عند العرب أو عند غيرهم من الأمم الأخرى.

9- لقد استطاع المنهج السيميائي أن يفتح آفاقا في المقاربة النقدية للنصّ الشعري العربي، وذلك أمر لا ينكره إلاّ جاحد، إلاّ أنّ ذلك لا يعني التماهي داخل هذه المنهج إلى الدرجة الّتي ننسى فيها أو نتناسى أنتا نتعامل، من جهة، مع منهج وضعي مليئ بالثغرات والهفوات، متصف بالنسبية والنقصان، ومن جهة أخرى أنتا نتعامل مع نصّ عربي له خصوصيته وفرادته الّتي تجعله يختلف مع بقية النصوص اللغوية الأخرى.

الهوامش و المراجـــــع

[a] – محسن أعمار: مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب– محاولة تركيبية، مجلّة علامات، ع20، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء– المغرب، ص100.

[b] – محمد مفتاح: سيمياء الشعر العربي القديم– دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة، الدار البيضاء، سنة 1989، ص05.

[c] – المرجع نفسه، ص05.

[d] – محمد مفتاح: دينامية النصّ– تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط2(1990)، ص05.

[e] – رولان بارت: درس السيميولوجيا، ت: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للطباعة والنشر– الدار البيضاء، ط1(1986)، ص21/20.

[f] – محمد إقبال عروي: السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، مجلة عالم الفكر، م24، ع03، مارس1996، ص196.

[g] – ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط2(2000)، ص107.

[h] – المرجع نفسه، ص107.

[i] – عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4(1998)، ص44.

[j] – ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، ص108.

[k] – محمد مفتاح: سيمياء الشعر العربي القديم، ص05.

[l] – ولست أدري لماذا هذا التوليد غير العلمي للمناهج، والّذي أصبح يرهق كاهل القارئ العربي. وأقصد مصطلحا الشعرية العربية والشعرية الغربية. حيث بهذا الشكل ستصبح لكل لغة وثقافة ما شعريتها. وتأسيسا على ذلك كان الأحرى بالدارس أن يقول أن المنهج المعتمد هو الشعرية دون أن يفصل بين المنهج الغربي والعربي، وذلك من منطلق أن

تطبيق أي منهج غربي على النصّ العربي سيجعلنا لا محالة نستنجد بما حققته المنظومة النقدية العربية.

[m] – محمد الداهي: ملامح المشروع النقدي لمحمد مفتاح، ضمن كتاب (التأسيس المنهجي والتأصيل المعرفي– قراءات في أعمال الباحث الناقد محمد مفتاح)، شركة النشر والتوزيع المدارس– الدار البيضاء، ط1(2009)، ص212.

[n] – مجدي وهبة، معجم مصطلحات الأدب– إنكليزي– فرنسي– عربي، مكتبة لبنان– بيروت– لبنان، سنة1974، ص318

[o] – سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني– بيروت، ط01(1985)، ص223.

[p] – محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري– استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء/ بيروت، ط2(1986)، ص07.

[q] – المرجع نفسه، ص ن.

[r] – المرجع نفسه، ص 14.

[s] – المرجع نفسه، ص 14.

[t] – الطاهر الروابنية: النسقية والتركيب المنهجي في الخطاب النقدي عند محمد مفتاح، ضمن كتاب (التأسيس المنهجي والتأصيل المعرفي– قراءات في أعمال الباحث الناقد محمد مفتاح)، ص162.

[u] – تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ المدخل النظري لهذه الدراسة كان قد نشره الناقد قبل ذلك؛ أي سنة 1992 بمجلة علامات في النقد السعودية بهذا العنوان: «التحليل السيميائي للخطاب الشعري– النصّ من حيث هو حقل للقراءة».

[v] – عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري– تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي، دار الكتاب العربي، الجزائر، سنة 2001، ص18و19.

[w] – المرجع نفسه، ص10و11.

[x] – المرجع نفسه، ص11.

[y] – المرجع نفسه، ص12و13.

[z] – صلاح فضل: شفرات النصّ– دراسة سيميولوجية في شعرية القص ّوالقصيدة، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2(1999)، ص29.

[aa] – المرجع نفسه، ص29و30.

[bb] – محمد إقبال عروي: السيميائيات وتحليلها لظاهرة الترادف في اللغة والتفسير، ص194.

[cc] – المرجع نفسه، ص ن.

[dd] – المرجع نفسه، ص ن.

[ee] – ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، ص114.